II. ULUSLARARASI
SADREDDİN KONEVÎ SEMPOZYUMU
BİLDİRİLERİ

SECOND INTERNATIONAL
SYMPOSIUM ON SADREDDIN QUNAWI

6 - 8 EKİM 2011
KONYA

MEBKAM
MERAM BELEDİYESİ
KONEVİ ARAŞTIRMA MERKEZİ
MERAM MUNICIPALITY
QUNAWI RESEARCH CENTER

6 - 8 Ekim 2011 tarihleri arasında Konya Bera Otel'de düzenlenen bildirilerden oluşmaktadır.
Eserin tüm hakkı MEBKAM' a aittir.

MEBKAM Yayınları 8

II. Uluslararası Sadreddin Konevi Sempozyumu Bildirileri

Editör
Hasan YAŞAR

Kapak Tasarım
Alper ÜNÜVAR

Grafik Tasarım ve Mizampaj
neva
www.neva-krc.com
0332 324 58 45

Tashih
Ahmet ÇELİK

ISBN
978-605-389-127-7

Baskı - Cilt
olgun çelik ofset matbaa
www.olguncelikofset.com
Büsan OSB. F. Çakmak Mh. 10670 Slk.
No:26/D Karatay/KONYA
T: +90.332 342 32 20
Sertifika No:282 37

Baskı Yılı
Mart 2014

منزلة صدر الدين القونوي وأثره
في الفكر الإسلامي

لا يختلف الدّارسون المحدثون لعلم التصوّف عامّة ولمدرسة محيي الدّين بن عربي خاصة في أنّ تلميذه صدر الدّين القونوي (ت 673 هـ) اضطلع بدور محوريّ في شرح تعاليم شيخه ونشرها إن من خلال كتبه الخاصّة أو عن طريق تلاميذه وأتباعهم. وعلى هذا الأساس حاولنا أن ننظر في منزلة القونوي لكن ليس من زاوية صلته بشيخه شارحا وناشرا لآرائه فحسب وإنّما من جهة الصدى الذي وجدته كتبه الخاصّة أيضا في مستوى الشّروح التي اهتمّت بها في بلدان مختلفة وعصور متعاقبة ومذاهب وطرق متنوّعة فقهيّة أو صوفيّة. وكذلك من ناحية تلاميذه المباشرين وغير المباشرين. وسنركز في بحثنا هذا على بعض الملاحظات والاستنتاجات الخاصّة بأثر القونوي في الثقافات التركية و الفارسية و العربيّة وكذلك الهندية والصينية. وختمنا هذا العمل بالنظر في بعض تجلّيات تأثير القونوي في عدد من الطرق الصوفيّة كالشاذليّة والنقشبندية وغيرها.

I- من تجليات أثر القونوي في بعض الثقافات الإنسانيّة

1- تأثير صدر الدين القونوي في الثقافة العثمانيّة التركية

إنّنا لا ندعي من خلال هذا المبحث أنّنا نستطيع بمفردنا أن نحيط علما بكل تجلّيات تأثير صدر الدين القونوي في الفكر والثقافة التركية. لكنّنا سنجمع بعض الملاحظات والاستنتاجات التي خلصنا إليها بعد أن اطلعنا على أثر القونوي في بعض تلاميذه وأثر كتبه في الفكر والواقع الإسلاميّين. ولعلّ الملاحظة الأولى تتمثّل في كثرة المخطوطات التي احتفظت بها المكتبات التركية سواء ما تعلّق منها بكتب القونوي نفسه أو بالشروح والتعاليق التي كتبت على مؤلفاته. وهذه المخطوطات تحتاج إلى بحث مستقلّ وشامل ومعمّق يحصر المخطوطات التركية المختلفة من حيث عددها وحالتها ومحتواها ويقوم في مستوى ثان بمقارنتها بنظيراتها في مختلف مكتبات العالم. ولمّا كان هذا العمل مستعصيا على فرد بَعَينه فإنّ مراكز البحث المهتمّة بتراث ابن عربي وتراث صدر الدين القونوي مدعوّة إلى تكليف بعض الباحثين بالقيام بهذا الجهد الضروري للبحث العلمي.

و تتمثّل الملاحظة الثانية في أن كتب صدر الدين القونوي كان لها أثر مهمّ على غرار كتب شيخه ابن عربي في المدارس العثمانيّة لكن الدّراسات تبدو شحيحة في هذه المسألة في حدود علمناالمتواضع.

أمّا الملاحظة الثالثة فهي تواصل تأثير كتابات القونوي وتعاليمه على مرّ العصور ويمكن أن نتوقّف هنا عند محطات رئيسيّة تستهلّ بداود القيصري ابن القرن الثامن للهجرة. وهذا العالم المنتمي إلى مدينة قيصرية التركية مهمّ جدا لسببين على الأقلّ أوّلهما أنّه كان من أنصار مدرسة ابن عربي لذلك شرح كتابه "فصوص الحكم" وتجلّى من خلاله تأثره بالقونوي وبالجندي تلميذ القونوي المباشر أمّا السبب الثاني فيتمثل في تولّيه مسؤوليّة إدارة أوّل مدرسة عثمانيّة والتدريس بها. ولا ريب في أنّ هذه المدرسة كانت فرصة له لتكريس تعاليم مدرسة ابن عربي وصدر الدين القونوي. وكان مقرّ هذه المدرسة مدينة إزنيق التي كانت تحت الحكم البيزنطي ففتحها العثمانيون سنة 731 هـ. وأرادوا من خلال إنشاء مدرسة بها تكريس الوجود العثماني الإسلامي بها.

وخلال النصف الأوّل من القرن التاسع للهجرة ترسّخ أثر صدر الدين القونوي في الفكر العثماني من خلال أحد أبرز أعلامه هو الملاّ الفناري (ت 834هـ) فقد كتب أهمّ شرح على كتاب "مفتاح غيب الجمع والوجود" للقونوي وسمه "بمصباح الأنس بين المعقول والمنقول في شرح مفتاح غيب الجمع والوجود" وتتأتّى أهمّية الفناري من أنّه أوّل شيخ إسلام عثماني وممّن تولّوا القضاء بمدينة بورسا. وفي عهده يبدو أنّ بورسا أصبحت مركزا علميا وفكريا مهمّا، أمّا أهميّة هذا الكتاب فتتأسّس على أنّه أضحى نصا تأسيسيا مهما إن لدى الطّرق الصوفية في تركيا أو في إيران. وهذا ما جعل بعض المتصوّفة يتصدّون لشرحه على غرار محمد بن قطب الدّين الإزنيقي (ت 885هـ) وما يؤكّد ملاحظتنا الخاصّة ببورسا أنّ الملاّ أحمد إلهي (ت 896هـ) أصيل بخارى استقر ببورسا حيث ترجم "مفتاح الغيب" للقونوي.

وفي بداية القرن العاشر للهجرة نجد محيي الدين محمد الاسقيليبي شيخ ياوس (ت 920 هـ) يذكر القونوي وتلاميذه كالجندي والكاشاني[1]. ولم يخل النصف الثاني من هذا القرن من صدى أعمال القونوي فقد كتب نورالدين زاده (ت 981هـ) شرحا على كتاب النصوص للقونوي.

---

[1]- انظر : Mustafa Tahrali, A General outline of the influence of Ibn Arabi on the Ottoman Era. www.ibnarabisociety. org/

وفي القرن الحادي عشر كتب عثمان فضلي الإلهي (ت 1102هـ) "مصباح القلب في شرح مفتاح الغيب" كما كتب تعليقة على شرح الفاتحة للقونوي.

وفي القرن الثاني عشر كتب عبد الرحمان البرسوي الحنفي المشهور باسم موج زاده (ت 1161هـ/1748م) شرحا لمفتاح الغيب. وبرزشرحان تركيان لهذا الكتاب في القرن الثالث عشر للهجرة أحد هما لأحمد عبد الله القريمي (ت 1211هـ)، والظاهر أن هذا الشرح مماثل لشرح أحمد إلهي،والثاني لعبد اللطيف بن محمد البرسوي المشهور باسم غزي زاده (ت 1242هـ).

وهكذا فإنّ شروح العلماء لكتب القونوي غطت كلّ العصور تقريبا بدءا من القرن الثامن للهجرة ووصولا إلى القرن الثالث عشر. لكن تأثير القونوي في الفكر العثماني لا يمكن أن يقتصر على تبيّن الشروح التي كتبت على مؤلفاته فحسب فمن الضروري توسيع دائرة النظر لتشمل مؤلّفات أخرى كتبها المفكّرون الأتراك إن في مجال التصوّف أو غيره ،ففي إطار شروح كتب ابن عربي التي أنجزها كتاب أتراك قد نعثر على صدى مؤلّفات القونوي وآرائه وتعاليمه،نذكر من ذلك مثلا "شرح فصوص الحكم" لبالي أفندي (ت 960 هـ/1553م) حيث يقول على سبيل المثال في تفسير عبارة "فنقول اعلم" : "قال مولانا قرمي في "شرح مفتاح الغيب" للشيخ صدر الدين القونوي اعلم تنبيه وإيقاظ لأهل الطلب والترقّي على التوجّه الكامل والإقبال التام على الإصغاء لما يرد بعده بقلب حاضر وإيماء إلى جلالة قدره"[2].

ويبدو أنّ وراء التأثير الكبير الذي مارسه صدر الدين القونوي في الفكر العثماني والتركي الحديث عوامل شتّى من أبرزها العامل السياسي فقد أظهر الحكّام العثمانيّون الإجلال لمحيي الدين ابن عربي وتلاميذه فحافظوا على تراثهم وشجّعوا على الاعتناء به من ذلك أنّ السلطان برهان الدين (ت800هـ/ 1398م) كلّف كتّابا بشرح آثار صدر الدين القونوي وكتب هو نفسه شرحا وسمّه بـ"إكسير السعادات في أسرار العبادات". وكان قد تراسل مع شيخ صوفي هو علاء الدين يار علي شيرازي دارت على بعض المسائل الماورائيّة في "مفتاح الغيب". ويبدو أنّ اهتمام السلطان بالشيخ القونوي بدأ عندما أهدى سجادين إلى ضريح صدر الدين بكنيا وأهديت إليه في المقابل نسخة من "فصوص الحكم" محلاّة بكتابات بخط القونوي ذاته[3].

والظاهر أنّ الدّفع الكبير الذي وجدته مدرسة ابن عربي والقونوي كان بداية من عهد السلطان العثماني محمد الفاتح[4] (1451م-1481م)ذلك أنه كان من أتباع هذه المدرسة. وقد اتخذ شيخه شمس الدين (ت 1459م) مستشارا له. وهو تلميذ الحاج بيرم (ت 1430م) مؤسس الطريقة البيرمية في تركيا وأحد أتباع مدرسة ابن عربي. وقد كلّف هذا السلطان ثلاثة علماء على الأقل بشرح كتب صدر الدين هم الإزنيقي والقرمي والإلهي. ويتضمّن شرح الإلهي على مفتاح الغيب عدة إشارات تخصّ السلطان في ثنايا النصّ تبيّن أنّه ينتظر منه أن يقرأه[5].

كما أمر هذا السلطان بأن تترجم بعض كتب صدر الدين إلى الفارسيّة واحتفظ بنسخة من "شرح الفصوص" للجندي تلميذ القونوي المباشر في مكتبته الخاصّة[6] ولم يكن السلطان محمد الفاتح السلطان العثماني الوحيد الذي يهتمّ شخصيّا بابن عربي وتلاميذه وأتباعه فقد واصل ابنه السلطان بايزيد الثاني السير على منواله. وكان مثل والده من المحبين للكتب والجامعين لها. وعندما غزا سليم الأوّل سوريا سنة 1517 م كان أوّل عمل يقوم به البحث عن موقع قبر ابن عربي الذي كان مهملا وأمر ببناء ضريح له وجامع حوله[7].

وقد تعاضدت السلطة الرسمية لعلماء الدين مع السلطة السياسيّة في الدولة العثمانيّة فقد أصدر شيخ الإسلام كمال باشا (ت 940 هـ) في عهد سليمان القانوني فتوى تقرّ كلّ مؤلّفات الشيخ ابن عربي وتحرّم تحريما رسميّا قذفه في كامل أنحاء الامبراطوريّة العثمانيّة[8]. وقد ترتب على ذلك ازدهار المصنّفات المتعلّقة به وبتلاميذه في المناطق العثمانيّة.

2- أثر القونوي في الثقافة الفارسية

لقد وقفنا أثناء تحليلنا لبعض تجلّيات تأثير تعاليم القونوي من خلال تلاميذه وكتبه على معطيات متنوّعة تبرز تأثيره الجلي في الثقافة الفارسية. لكن لا ينبغي أن نفهم من ذلك أنّه تأثير في اتجاه واحد فممّا لا شكّ فيه أنّ القونوي نفسه تأثر بالفكر

---

[2]- بالي أفندي، شرح فصوص الحكم، المطبعة النفيسة العثمانية، 1309هـ، ص 27.

[3]- انظر Jane Clark, Earlybest sellers in the Akbarian tradition, p. 13.
وانظر أيضا : W. Chittick, « Sultan Burhan al-Din's sufi correspondance in « Zeitschrift für die Kunde des Morgaulandes, Vienna, 1981, pp. 33-45.

[4]- انظر ترجمته في مقال "محمد 2" (Mehemmed II) لخليل أنالشيك (Halil Inalcik) بـ دائرة المعارف الإسلامية ، 972/6.

[5]- المرجع نفسه، 754/8

[6]- راجع Jane Clark, Ibid, pp. 13-14

[7]- انظر خليل إنيالجيك، تاريخ الدولة العثمانيّة من النشوء إلى الانحدار، ترجمة محمد الأرناؤوط، بيروت، دار المدار الإسلامي. 2002، ص 301.

[8]- انظر Tahrali, General outlines, pp. 46-47,50

الفارسي لأنّ العهد السلجوقي الذي عاش في ظلّه كانت فيه الأوساط المتعلّمة في مدن وسط الأناضول تأخذ بالثقافة الفارسيّة الرّفيعة[9].

وقد كانت الفارسية لغة البلاط بالنسبة إلى سلاجقة الأناضول والعثمانيّين الأوائل وكذلك الامبراطوريات السنية الجديدة في إيران وخراسان[10]. وكان السلاطين السلاجقة يرحّبون بقدوم كبار العلماء والمتصوّفة من تركستان وإيران الذين غادروا ديارهم تحت ضغط الغزو المغولي ممّا جعل المدن السلجوقيّة كقونية وقيصرية وآق سراي وسيواس تتحوّل إلى أشهر مراكز الصوفيّة في العالم الاسلامي. وكان الفرس يزورون ابن عربي في حياته ومنهم البلخي الذي نجده في سماعات كتاب "الفتوحات" على سبيل المثال. ولئن كان ابن عربي لا يتكلّم الفارسيّة، فإنّ تلميذه صدر الدين القونوي كان يحسنها ولعلّ الفضل في ذلك يعود إلى أوحد الدين كرماني (ت 635هـ) الذي إلتقاه ابن عربي في قونية سنة 602هـ وأضحى أقرب أصدقائه وذكره عدّة مرّات في "الفتوحات". وأرسل ربيبه صدر الدين للتعلّم عليه فظلّ في صحبته لمدّة سنتين ورحل معه إلى شيراز[11]. وكانت لصدر الدين صلات حسنة بجلال الدين الرومي. ولئن كتب صدر الدين عددا قليلا من الكتب بالفارسيّة فقد كان الوسيط الأكثر أهمية الذي انتقلت من خلاله تعاليم ابن عربي إلى المناطق التي تسود فيها اللغة الفارسيّة. ومنذ سنة 643هـ على أقلّ تقدير درّس صدر الدين تائية ابن الفارض بالفارسيّة وأضحت دروسه ملهمة لتلاميذه. وكان كثير من هؤلاء يكتبون باللغتين العربية والفارسية ويترجمون أحيانا كتبهم من لغة إلى أخرى. وفي هذا الصدد استلهم سعيد الدين الفرغاني شرحه المنهجي لتائية ابن الفارض بالفارسية من خلال دروس القونوي. وقد عرضه عليه فاستحسنه وكتب بعض العبارات في ذلك فوضعها الفرغاني في ديباجته على الشرح الفارسي للتائية تيمّنا وتبرّكا.

أمّا فخر الدين العراقي تلميذ القونوي فهو يعدّ من أكبر شعراء اللغة الفارسيّة. وقد ألّف شرحا مختصرا لفصوص الحكم لابن عربي وسمه "باللمعات" وكان تأليفه في قونية بين سنتي 669هـ و673 أي في الفترة التي كان فيها تحت تأثير تعاليم القونوي لذلك استعاد في مصنّفه هذا الأطروحات التي تعلّمها من القونوي كوحدة الوجود والإنسان الكامل. ويعتبر كتاب "اللمعات" أحد الكتب التي استأنس من خلالها المتصوّفة الإيرانيّون بفكر الشيخ الأكبر. وقد اعتمد هذا الكتاب مرجعا لدراسة التصوّف وشرح شروحا كثيرة تتجاوز الثلاثين منها شرح علي بن يوسف الكركري (9 هـ/15م) الذي يستند خاصّة إلى صدر الدين القونوي وأوحد الدين الكرماني. ويشتمل ديوان فخر الدين العراقي على عشرين قصيدة تدور على مواضيع دينيّة وصوفيّة يمدح فيها العراقي أساتذته الروحيين ومنهم صدر الدين القونوي. وكان القونوي ذا تأثير على تلميذ فارسي آخر تتلمذ على يديه هو قطب الدين الشيرازي (ت 710هـ) الذي ولد بشيراز فقد درس مقتطفات من "جامع الأصول في أحاديث الرسول" لابن الأثير على يد صدر الدين خلال سنة 673هـ[12]. وبالفعل قرأ الشيرازي عليه بقونية وصاحبه في العلوم الظاهرة والباطنة[13]. وبعد فترة التتلمذ تصدّى الشيرازي للتدريس. ويخبرنا السيوطي أنّه سكن تبريز وأقرأ بها العلوم العقلية وحدّث ب"جامع الأصول" عن الصدر القونوي عن يعقوب الهمذاني عن المصنف[14].

ولئن كنّا لا نعرف مدى تأثير تعاليم ابن عربي والقونوي في كتابات قطب الدين الذي يعدّ أشهر شرّاح كتاب "حكمة الإشراق" للسهروردي، فإنّنا نعلم أنّ فارسيا آخر هو أبو حامد بن تركه (أواخر ق 7 وأوائل ق 8هـ) حاول المزج بين تعاليم ابن عربي والسهروردي. ويظهر ذلك من خلال كتابه "قواعد التوحيد" إذ يلاحظ المتتبّع لمحتواه أنّه يحتذي في كثير من مواقفه ومسائله بتعاليم صدر الدين القونوي، بل إنّه يلخص فقرات من أول شرح كبير لفصوص ابن عربي كتبه مؤيّد الدين الجندي تلميذ القونوي[15].

وقد تجلّى تأثير القونوي في الثقافة الفارسيّة من خلال كتبه على غرار "مفتاح غيب الجمع والوجود" فقد كان من المراجع الدراسيّة الأساسيّة في المدارس الإيرانيّة إلاّ أنّه لم يكن يدرس إلاّ بعد استيفاء دراسة أكثر النصوص الفلسفيّة عسرا. وظلّ هذا الكتاب من المراجع الأولى لتدريس التصوّف في إيران.

كما عدّ شرحه "مصباح الأنس" للفناري نصا تأسيسيا مهمّا لدى صوفيّة إيران. ولعلّ أحد أسباب اهتمام الإيرانيّين "بمفتاح الغيب" أنّه ترجم إلى الفارسيّة بأمر من السلطان محمد الفاتح سنة 880هـ. وظهرت في القرن 14 هـ تعليقات إيرانيّة عدّة عليه اضطلع بها الميرزا الآشكوري وسيد محمد القمي ومحمد رضا قمشئي وحسن حسن زاده الآملي، وكتب آية الله الخميني تعليقه على هذا الكتاب سنة 1935. وترجم إلى الفارسيّة الحديثة سنة 1995-1996.

---

[9]- خليل إينالجيك، تاريخ الدولة العثمانية، المرجع المذكور، ص 283.
[10]- انظرفصل سلاجقة (saljuqs) بالموسوعة الإيرانية.(http://www.iranicaonline.org)
[11]- انظر Chittick, Ibn Arabi, Encyclopaedia Iranica,
[12]- انظر H. Pitter, Autographs in Turkish Libraries, in Oriens VI, 1953, 63-90
وانظر أيضا شتيك (Chittick)، صدر الدين القونوي، د.م.إ. 775/8
[13]- هيفروديركي، القونوي، الموسوعة العربية (www.arabency.com)
[14]- السيوطي، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط2، دار الفكر ،1399هـ/1979م، 282/2.
[15]- راجع فضل الرحمان، أبو حامد صدر الدين محمد بن تركه (Torka)، الموسوعة الإيرانيّة الالكترونيّة.

وكان كتاب "الفكوك" أيضا محلّ اهتمام كبير ومخصوص في الفكر الإيراني فقد كان ضمن الكتب الثلاثة للقونوي التي كانت تدرس في الحوزات الفلسفيّة والعرفان الإسلامي في القرون الستة الأخيرة. وتواصل الاحتفاء به في الفكر الإيراني الحديث من ذلك ترجمته إلى الفارسية سنة 1992 و1993 على يد محمد خواجوي الذي ترجم أيضا كتاب "إعجاز البيان في تأويل أم القرآن" للقونوي خلال سنتي 1996-1997.

ولا شكّ في أنّ البحث في أثر صدر الدين في الثقافة الإيرانية لا يمكن أن يكتفي بتلاميذه المباشرين وكتبه لأنّ بعض العلماء الذين تشبّعوا بتعاليمه كان لهم فعلهم الجلي في الفكر الإيراني من ذلك مثلا أنّ شروحا عدّة "للفصوص" بالفارسيّة مقامة على شرح القيصري للفصوص. وهذا التأثير مؤكّد في أوّل شرح فارسي للفصوص هو "نصوص الخصوص" لبابا ركن الدين الشيرازي (ت 769هـ) تلميذ داود القيصري.

3- أثر القونوي في الثقافة العربيّة

إنّ دراسة أثر القونوي في الثقافة العربية من العسر بمكان لمحدودية الدراسات في هذا الموضوع. إلاّ أنّ بحوزتنا بعض المعطيات الأولية التي سنشير إليها. وفي صدارتها أنّ النّقد الذي وجهه ابن تيميّة لابن عربي والقونوي قد جعل مدرستهما موضع جدل في عدّة مراكز رئيسيّة في الثقافة العربيّة الإسلاميّة مثل القاهرة ودمشق[16]. ومع ذلك يخبرنا بعض الدارسين أنّ القونوي كان له تلاميذ في مصر وسورية والأناضول أي في الأماكن نفسها التي درّس فيها ابن عربي[17]. إلاّ أنّنا مع الأسف لا نعرف أسماء تلاميذه في مصر وسوريا. ومع ذلك نعلم أنّه انطلاقا من سنة 643هـ قاد القونوي مجموعة من التلاميذ إلى القاهرة وفي الطريق درس القونوي تائية ابن الفارض[18]. ويروي ابن العماد في هذا الصدد خبرا عن عبد الرؤوف المناوي يفيد بأنّ هذه الرحلة إلى مصر جمعت القونوي بعفيف التلمساني تلميذه العربي أصيل مدينة تلمسان الجزائرية، وأنّهما اجتمعا خلالها بالمتصوّف المغربي ابن سبعين[19]. وقد كانت صلة القونوي بالتلمساني من العمق ما جعل القونوي يرسل إليه رسالة مطوّلة وسمها بـ"الإلماع ببعض كلمات أسرار السماع" وبفضل هذه الصلة وبفضل كتابات عفيف الدين أضحى موضع تبجيل واحترام في موطنه تلمسان حيث يسمّى "سيدي عفيف ابن تيرني، وهي منطقة في مدينة تلمسان الجزائرية. ورغم أنّ المصريّين كان لهم تفضيل خاص للتصوّف الأخلاقي والعملي في مقابل التصوّف النظري والفلسفي فإنّ تعاليم ابن عربي انتشرت في مصر في عهد المماليك خلال القرن 13 ومن أهمّ ناشريها عبد الوهاب الشعراني (ت 973هـ) فقد سعى إلى عقد الصّلة بين مبادئ التصوّف الشاذلي ومبادئ ابن عربي وهذا ما يفسّر الترجمة التي خصّ بها القونوي في كتابه "الطبقات الكبرى" وترحّمه عليه والتذكير بأنّه صاحب ابن عربي وبأن له تفسيرا للفاتحة ومؤلفات أخرى. وهذه الإشارة ذكية لأنّها لا تبرز من عناوين مؤلفاته سوى الكتاب الذي من شأنه أن يقرّب صاحبه من قارئ قد يكون حاملا لأحكام مسبقة ضدّ مدرسة ابن عربي وتلاميذه. ويجدر هنا أن ننبّه على أنّ المصلح محمد عبده (1905م) قد اشتغل في أواخر حياته بدراسة ابن عربي فهل اطّلع خلال ذلك على أعمال لصدر الدين القونوي؟

وعندما ننعم النظر في قائمة شرّاح كتب القونوي نلاحظ أنّ حظّ العرب منها قليل. نذكّر في هذا الصدد بشرح لكتاب "النصوص" أنجزه عبد الكريم القطبي الحنفي المولود والمتوفى بمكة سنة 1055 هـ. كما شرح كتاب "مفتاح الغيب" مصطفى أفندي (ت 1308هـ) قاضي غزة. ويوجد شرح آخر لشهاب الدين أحمد بن حسين الحموي.

وفي سورية تجلّى تأثير القونوي على سبيل المثال من خلال "تفسير روح المعاني" لشهاب الدين الألوسي (ت 1270هـ) ففي هذا التفسير ذكر متواتر لأسماء كبار الصوفيين كبشر وابن الفارض وابن عربي وصدر الدين القونوي[20] من ذلك قوله : "وذكر مولانا الشيخ صدر الدين القونوي قدّس سره في تفسيره الفاتحة أنّه ما من صورة إلاّ ولها روح"[21].

وعندما تطرّق الألوسي إلى مسألة وجود الخضر أورد رأي من يقول : يكفي في ثبوته إجماع المشايخ وجماهير العلماء الأعلام، إلاّ أنّ من نقد هذا الموقف اعتمد موقف القونوي يقول : "وتعقب بأنّ إجماع المشايخ غير مسلّم فقد نقل الشيخ صدر الدين إسحاق القونوي في "تبصرة المبتدي وتذكرة المنتهي" أنّ وجود الخضر (ع) في عالم المثال"[22]. وقد ذكر الألوسي القونوي في مناسبتين أخريين اهتم في الأخيرة منهما بمفهوم القلب يقول:" وينبغي أن يعلم أن للقلب عندهم كما قال الصدر القونوي إطلاقين الأوّل إطلاقه على اللحم الصنوبري الشكل المعروف عند الخاصّة والعامّة والثاني إطلاقه على الحقيقة الجامعة

---

[16]- انظر Jane Clark, Early best sellers, p. 10

[17]- انظر W. Chittick, Spectrums of Islamic thought, in the legacy of Medieval Persian Sufism, ed. L. Lewidson, (London 1192), p.27.

[18]- شتيك (Chittik)، صدر الدين القونوي د.م.إ. 775/8.

[19]- ابن العماد، شذرات الذهب ، بيروت، دار ابن كثير، 1993، 720/7.

[20]- انظر أكرم علي حمدان، الجانب الصوفي في تفسير روح المعاني، مجلّة الجامعة الإسلاميّة بغزة، المجلد 14، العدد 2، جوان 2006.

[21]- الألوسي، روح المعاني، بيروت، دار إحياء التراث العربي، 173/1.

[22]- المصدر نفسه، 326/15 .

بين الأوصاف والشؤون الربانيّة وبين الخصائص والأحوال الكونية الروحانية منها والطّبيعيّة..."[23]. وفي سورية تواصل الاهتمام بابن عربي والقونوي من خلال عبد الغني النابلسي (ت 1144هـ). فقد شرح فصوص ابن عربي وكتب كتابين في وحدة الوجود.

و تجلّى تأثير القونوي في الثقافة العربيّة الإسلاميّة بشكل خاصّ من خلال الأمير عبد القادر الجزائري (ت 1883م) الذي شرح "رسالة الغيب" للقونوي في كتابه "المواقف الروحية والفيوضات السبوحية"، وتدور هذه الرّسالة على فكرة وحدة الوجود وعلى نظريّة الإنسان الكامل. والمعلوم أنّ الأمير عبد القادر درّس كتب ابن عربي في دمشق بعد نفيه من السلطات الاستعماريّة الفرنسيّة في الجزائر.

والمحصلة أن تأثير القونوي في الثقافة العربية وإن لم يكن كبيرا مقارنة بأثره في الثقافتين التركية والفارسية فإنّه حاضر ويحتاج إلى مزيد البحث والتنقيب في المصادر الصوفية المنتشرة في البلاد العربيّة.

4- أثر القونوي في الفكر الإسلامي في الهند والصّين

لئن كانت المعطيات في هذا المبحث شحيحة فإنّنا سنلمع إلى بعض ما استطعنا التوصّل إليه إن على صعيد الصّلة المباشرة بين القونوي وعلماء الهند أو الصين أو صلته غير المباشرة معهم من خلال تلاميذه وأتباع مدرسته.

ونعلم في هذا الصدد أنّه منذ القرن 14 م سافر سيد علي الهمذاني (ت 1385م)، وهو صوفي فارسي إلى كشمير وساعد على نشر أفكار ابن عربي في الهند سواء من خلال شرح بالفارسية على "فصوص الحكم" لابن عربي أو من خلال رسائل أخرى صوفية[24]. وبعد حوالي القرن نجد أحد علماء الهند ومتصوّفتها وهو علاء الدين المهائمي (ت 835هـ/1432م) الحنفي يكتب شرحا على "فصوص" ابن عربي وشرحا على كتاب "النصوص" للقونوي سمّاه بـ"مشرع الخصوص إلى معاني النصوص". وقد كتب أيضا مصنّفات أخرى في التصوّف الفلسفي بالعربيّة تأثر من خلالها بكتب بالفارسيّة تتعلّق بهذا المجال المخصوص. وهذا المعطى يبرز أنّ أتباع مدرسة ابن عربي والقونوي في الهند كانوا متعوّدين باللغة الفارسيّة وبالعلماء والشعراء والمتصوّفة الذين يعيشون في البلدان التي تهيمن فيها الفارسيّة. وهذا ما تبدّى من خلال فخر الدين العراقي، فلمعاته التي بنيت على دروس شيخه القونوي كان لها أثر عميق فى الطريقة السهروردية الهندية.

وفي السياق ذاته انتشرت تعاليم ابن عربي والقونوي في الهند بفضل عبد الرحمان الجامي (ت 898هـ). فقد عاش معظم حياته بهراة في أفغانستان ومن هذه المنطقة التي يتكلّم أهلها الفارسيّة ستنتقل أفكار مدرسة ابن عربي والقونوي نحو الشرق لتصل إلى البلاطات المغولية لشرق الهند مما سيساهم خلال القرن 17 في ظهور شروح أكبرية على نصوص هندية[25].

ولا شكّ في أنّ من يتصدّى لدراسة موسعة لتأثير مدرسة ابن عربي والقونوي إن من خلال مؤلفات الهنود المسلمين أو من خلال تراجمهم سيعثر على كثير من المعطيات التي تسهم في تعميق فهمنا لجانب من جوانب استقبال تعاليم مدرسة التصوّف الفلسفيّ في الهند على غرار عثورنا في ترجمة الشيخ مؤتمن الدولة أبو الفضل المؤرّخ ابن الشيخ مبارك اليماني الأصل الهندي المسكن (كان حيا سنة 1004هـ) أنّه كان "منتسبا إلى المذهب الحنفي لكنّه في الحقيقة كان نابذا للتقليد وسالكا مسلك التصوّف والإشراق وعارفا بأساليب التصوّف خصوصا مسلك الشيخ محيي الدين بن عربي وابن الفارض والشيخ صدر الدين القونوي..."[26].

وقد تسرّب تأثير ابن عربي والقونوي إلى الفكر الصيني منذ أواسط القرن السابع عشر سواء من خلال مؤلّفات كتبها صينيون مسلمون[27] أو عن طريق مصنّفات مترجمة لعلماء مسلمين. وفي هذا السياق يعَدّ كتاب "اللوائح" و"أشعة اللمعات" لعبد الرحمان الجامي من أكثر الكتب المترجمة إلى الصينيّة تأثيرا في الفكر الصيني الإسلامي وفي الفلسفة الكونفشيوسية[28]. ولمّا كانت كتب الجامي تعرض تعاليم ابن عربي وكبار أتباعه وخاصّة القونوي فإنّه كان بالتأكيد جسرا أساسيا مرّت عليه آراء القونوي. ويعدّ "المقصد الأقصى" من الكتب التي ترجمت إلى الصينيّة. وكان مؤلفه عزيز الدين النسفي (ت 700هـ) تلميذ سعد الدين حموية (ت 649هـ) وهو مؤلف عدّة كتب في التصوّف الفلسفي باللغتين العربية والفارسية وقد كان متواصلا مع ابن عربي وصدر الدين القونوي. ويبدو أنّه حضر في الحلقات الفكريّة ذاتها معهما مع أنّه لا يمكن أن يقال إنّه يمثل نفس اتجاههما.

---

[23]- المصدر نفسه، 100/22.

[24]- انظر Seyyed Hossein Nasr, The garden of Truth, Harper collins, U.S.A. 2007, p 220.

[25]- انظر R. Vassie, Abd al-Rahman Chishti and the Bhagavad Gita, Theory in Practice, in Lewisohn, : Unity of Religion ed. Medieval Persian Sufism pp. 367-78 .

[26]- محسن الأمين، أعيان الشيعة، تحقيق حسن الأمين،بيروت،دار التعارف للمطبوعات، 1406 هـ/ 1986م 400/2.

[27]- يعدّ Wang Tai - Yü عالما مسلما يفسر التعاليم الإسلاميّة في اللغة الصينية، وقد نشر كتابه الموسوم بـ (The real commentary on the true teaching) سنة 1642م، وهو دراسة مطوّلة لمبادئ الإسلام.

[28]- انظر Sachiko Murata, chinese Gleams of Sufi light (New York, 2000) ، وهو يحتوي على ترجمة للوائح الجامي تعود إلى القرن 17 مرفوقة بمصطلحات كنفشيوسية من الصينية.

والنسفي أوّل من استخدم عبارة وحدة الوجود في الفارسيّة وله كتاب موسوم بالإنسان الكامل لذلك ساعد على نشر هذا المصطلح الشهير أيضا[29].

ويعتبر العالم المسلم الصيني ليوشيه (Liu chih) مترجم "لوائح" الجامي إلى الصينية صاحب أكثر الكتب تأثيرا في الفكر الإسلامي الصيني وهو موسوم بـ"الطبيعة والمبدأ في الإسلام". وقد نشر سنة 1704 م. وهو يتطرّق إلى مبدإ وحدة الوجود ويستخدم عبارة "اللاتعين" التي أدخلها صدر الدين القونوي في الاستعمال الجاري وتواتر استخدامها لديه[30].

II - أثر صدر الدين القونوي في بعض الطرق الصوفية

1- أثره في الطريقة الشاذلية

أسّست الشاذلية خلال القرنين السابع والثامن للهجرة. وانتشرت أساسا في شمال إفريقيا وفي غرب العالم الإسلامي[31] ويرجع أوّل اتصال بين مدرسة ابن عربي وممثّلها القونوي والطريقة الشاذلية إلى لقاء مختلف حول مدى صحة وقوعه بين أبي الحسن الشاذلي (ت665هـ) إمام هذه الطريقة وصدر الدين القونوي.

ويستند من أكّد وقوع هذا اللقاء إلى خبر رواه ابن عطاء الله الاسكندري (ت 709 هـ) في كتابه "لطائف المنن" حيث يقول : "ولمّا قدم الشيخ صدر الدين القونوي إلى ديار مصر رسولا اجتمع بالشيخ أبي الحسن، وتكلّم بحضرته بعلوم كثيرة والشيخ مطرق إلى أن استوفى الشيخ صدر الدين كلامه، فرفع الشيخ أبو الحسن رأسه وقال : أخبروني أين قطب الزمان اليوم. ومن هو صديقه وما علومه؟ قال : فسكت الشيخ صدر الدين ولم يردّ جوابا"[32].

والملاحظ أنّ هذا الخبر لا يتواتر في كتب مناقب الشاذلية على غرار كتاب "درّة الأسرار وتحفة الأبرار في مناقب ذي الكعب العلي والفخر الشامخ الجلي القطب الأكبر والغوث الأشهر سيدي علي أبي الحسن الشاذلي" فهو لا أثر فيه للقاء القونوي بالشاذلي في مصر على الرغم من وجود فصل فيه موسوم بـ"أمر النبي (ص) للشيخ الشاذلي بالانتقال للديار المصرية"[33].

وقد استنتج بعض الدارسين من الخبر المذكور رفض الشاذلي سلطة ابن عربي وتفوّقه عليه. وهذا الفهم يفترض أنّ القونوي كان مجبرا على التزام الصّمت تسليما بأنّ قطب الزمان هو الشاذلي وليس ابن عربي[34]. وقد جوبه هذا التأويل بالنقد لأنّ ابن عربي لم يدع لنفسه منصب القطب فضلا عن أنّ تاريخ اللقاء بين الرجلين الذي ينبغي أن يكون وقع خلال رحلة القونوي الثانية إلى مصر أي في حدود سنة 640هـ يتناقض مع وقوع نقاش حول القطب تناقضا تاما لأنّ ابن عربي كان قد مات قبل ذلك بسنتين[35]. وعلاوة على هذا فإن القونوي كان يعرف جيدا أن وظيفة القطب التي تعود ضمنا في هذا الخبر إلى الشاذلي لا تنسجم مع وظيفة ختم الولاية التي يؤكّد ابن عربي أنّه يحتفظ بها[36]. وبناء على هذا كان لكل من العلمين وظيفة مختلفة عن وظيفة الآخر ممّا جعل الشاذلي يأخذ مسافة من ابن عربي لإنشاء دائرته الروحيّة الخاصّة. ومهما يكن من أمر يجدر حسب بعض الدارسين الحديث عن اعتراف متبادل بين العلمين عوض الحديث عن تنافس بينهما[37]. ويعضد هذا الرّأي تطوّر الطريقة الشاذلية في اتجاه الاقتراب من الشيخ ابن عربي. فهي تعدّ الطريقة التي ورثت تعاليم ابن عربي أكثر من أيّة طريقة صوفية أخرى.

وقد ظهر هذا التأثر بتعاليم ابن عربي وبمفاهيم مدرسته منذ عطاء الله الاسكندري الذي أبدى إجلاله لابن عربي في كتابه "لطائف المنن" حيث تطرّق إلى فكرة الإنسان الكامل من خلال عبارة السيد الكامل واستخدم بشكل متواتر كلمة البرزخ التي تعود على وظيفة الرسول في الوساطة بين الله والناس كما تواتر لديه الحديث عن نظرية وحدة الوجود. وقد تعزّز تأثير مدرسة ابن عربي والقونوي في شيوخ الشاذلية من خلال أعلام الطريقة الوفائية المتفرّعة من الشاذلية وعلى رأسها محمد وفا (ت 765هـ) وابنه علي وفا (ت 807 هـ). ولئن كان فكرهما الصوفي يندرج في إطار خط ابن عربي فإنّهما لم يؤلّفا شروحا لكتبه

---

[29]- انظر Sachiko Murata, Islamic neo-confucianism by liu chih (www.asiawind.com)

[30]- المرجع نفسه.

[31]- انظر فصل "تصوّف" (Tassawwuf) لـ ماسينيون(Massignon) ورادتك د.م.إ. ط2 (بالفرنسية) 339/10.

[32]- العارف بالله ابن عطاء الله السكندري، لطائف المنن، تحقيق عبد الحليم محمود، ط2، مصر، دار المعارف، (د.ت) ،ص 88.

[33]- محمد بن أبي القاسم الحميري المعروف بابن الصباغ، درّة الأسرار، ص ص 13-24.

[34]- هذا الموقف إلى الباحث الغربي بول نويا (P. Nwyia) راجع Eric Geoffroy, De L'Influence d'Ibn Arabi sur l'école shadhilie egyptienne (époque mamelouke : premiers jalons), www.religioperennis.org

[35]- انظر Richard J.A. Mc Gregor, Sanctity and mysticism in medieval egypt : the wafa sufi order and the legacy of Ibn Arabi, State University of New York Press, washington, 2004,p .31.

[36]- انظر. M.Chodkiewicz, Le sceau des Saints, Paris, 1986, p. 173

[37]- راجع قوافروي Geoffroy، المرجع المذكور.

ولم يذكرا اسمه إلاّ أنّ ما كتباه يستند إلى فلسفته استنادا أساسيّا، فكتاب "الأزل" لمحمد وفا، وإن كان شرحا لأسماء الله فإنّه نصّ فلسفي يحتذي بتعاليم ابن عربي بصفة جلية. ويصفه الناشر في تقديمه لهذا الكتاب باعتباره ينتمي إلى تيار وحدة الوجود. والملاحظ أنّ هذا النص يستخدم المصطلحات الفلسفية بانتظام لذلك من المتصوّر تأثر الكاتب بمصنّفات أتباع ابن عربي مثل القونوي الذي شرح كتب أستاذه بألفاظ فلسفيّة مشابهة[38]. وقد كان أبو المواهب بن زغدان (ت 882هـ) أحد ممثّلي الطريقة الوفائية المغربية ذا ميل قويّ إلى ابن عربي ومن أشدّ المدافعين عنه[39] وله كتاب "التجليات" الذي يذكّر بكتاب لابن عربي بهذا العنوان.

وفي القرن العاشر للهجرة قام عبد الوهاب الشعراني بتأصيل تعاليم ابن عربي في مصر. والشعراني فقيه شافعي ومتصوّف شاذلي ساهم من خلال كتبه في تقريب كتابي "الفتوحات المكية" و"فصوص الحكم" من عامّة الناس[40]. وحاول أيضا عقد الصلة بين طريقة الشاذلي ومنهج ابن عربي وبرز دفاعه عن ابن عربي من خلال كتابه "الكبريت الأحمر في بيان علوم الشيخ الأكبر"[41] وهو بمثابة منتخبات من كتاب اختصر به الشعراني "الفتوحات المكية" سماه "لواقح الأنوار القدسية" ولمّا كان الشعراني من المدافعين عن ابن عربي فإنّه لم يكن ليهمل أعلام مدرسته لذلك ألفيناه يترجم للقونوي في "الطبقات الكبرى" ويترحم عليه ويذكر أنّه صاحب ابن عربي وأن له تفسيرا للفاتحة ومؤلفات أخرى[42].

ومن أهمّ الأمثلة على احتفاء أهل المغرب الإسلامي بابن عربي ومدرسته إحياء الأمير عبد القادر الجزائري (ت 1883م) لتراث الشيخ الأكبر من خلال تقديم دروس عن بعض مؤلفاته إثر انتقاله إلى دمشق. وقد أعاد نشر "الفتوحات المكية" لابن عربي. ومن أبرز تجليات تأثير القونوي في الأمير عبد القادر الجزائري (ت 1300 هـ) الذي كان قادري الانتساب شاذلي السلوك- شرحه ل"رسالة الغيب" لصدر الدين القونوي ضمن الموقف الثامن والستين وثلاثمائة من كتابه "المواقف الروحية والفيوضات السبوحية"[43]. ويبدو أنّه لا علاقة لهذه الرسالة بكتاب "مفتاح الغيب" للقونوي[44]. وتدور هذه الرسالة على فكرة وحدة الوجود ونظريّة الإنسان الكامل المستلهمة من مدرسة ابن عربي. وليس من المستغرب أن يتأثّر الأمير عبد القادر بابن عربي وبالقونوي فقد نفاه الاستعمار الفرنسي خارج الجزائر فاستقرّ ببلاد الشام ثم أقام بمدينة بورسا التركية عام 1855. وإثر ذلك بدأ كتابة "المواقف" وأقام في جوار مدفن الشيخ ابن عربي إلى أن توفّي ودفن بجوار قبره. ويعدّ كتاب "المواقف" إعادة إحياء لابن عربي إن من حيث المسائل الماورائيّة والكلاميّة المحورية أو من ناحية مَصطلحاته فكلها مماثلة لما يتوفّر في كتابات ابن عربي وشراحه كالقونوي والكاشاني.

وقد ساهم كتاب "المواقف" في نشر تعاليم ابن عربي لا في البلدان العربية والإسلامية فحسب وإنّما في أوروبا أيضا. ومن أشهر من تأثّروا به الشيخ عبد الرحمان عليش (ت 1930م) المالكي الشاذلي وانتقل هذا التأثير إلى أوروبا من خلال تلمذه الصوفي رني قانون (René Guénon) المعروف باسم الشيخ عبد الواحد يحيى وهو أحد أعلام التصوّف الأوروبي ومن أكثر المتأثّرين بابن عربي من خلال ما كتبه. وتأثر بابن عربي وبالقونوي أيضا المتصوّف ميشال فالسان (Michel Vâlsan) واسمه الإسلامي مصطفى عبد العزيز (ت 1974م) وهو شيخ الطريقة الشاذلية بباريس. وكان يمارس طقوس الزاوية الشاذلية بتونس بعد أن تردّد عليها هو وأتباعه على مدى سنوات. وقد ترجم هذا المتصوّف "رسالة التوجه الأتم"[45] (l'épître sur l'orientation parfaite) لصدر الدين القونوي وعلّق عليها. وكان ترجم قبل ذلك كتاب "الفناء في المشاهدة"[46] للشيخ ابن عربي (Le livre de l'extinction dans la contemplation) والجدير بالذكر أنّ عددا من المراكز الصوفية بالمغرب وخاصّة منها المرتبطة بالطريقة الشاذلية لا يزال يدرس فيها كتاب "الفصوص" و"الفتوحات المكية" لابن عربي[47].

2- أثر القونوي في النقشبندية وغيرها من الطرق الصوفية

---

[38]- انظر Richard, Sanctity and mysticism, ibid, p. 76

[39]- السخاوي، الضوء اللامع، بيروت (د.ت) 66/7.

[40]- انظر Michael Winter, Society and Religion in Early Ottoman Egypt :Studies in the Writings of Abd al Wahhab al-sha'rani, New Brunswick, NJ Transaction books, 1982

[41]- حققه عبد الله محمود محمد عمر، بيروت، دار الكتب العلميّة 1998.

[42]- يقول الشعراني : "ومنهم الشيخ محمد القونوي الصوفي رحمه الله صاحب ابن عربي له تفسير الفاتحة في مجلّد وله مؤلفات أخر، عاش نيفا وستين سنة، ومات سنة اثنتين وسبعين وستمائة بقونية وأوصى أن ينقل تابوته إلى دمشق يدفن عند الشيخ محيي الدين بن عربي شيخه فلم يتفق وكان مبتلى بالإنكار عليه إلى أن مات رضي الله عنه" الطبقات الكبرى، ص 291-292 ،نسخة الكترونية بموقع مكتبة المصطفى، (www.al- mostafa.com

[43]- الأمير عبد القادر بن محيي الدين الجزائري، المواقف الروحية والفيوضات السبوحية، تحقيق عاصم إبراهيم الكيالي الحسيني الشاذلي، ط بيروت، دار الكتب العلمية، 2004، ص ص 489-495

[44]- زعيم خنشلاوي، شرح رسالة الغيب لصدر الدين القونوي، متن كتاب المواقف للأمير عبد القادر الجزائري، الندوة الدوليّة الأولى حول القونوي، 2008، ص 296.

[45]- نشرت سنة 1966 في مجلة Etudes tranditionnelles, LXVII, 241-268

[46]- نشر سنة 1961.

[47]- انظر Seyyed Hossein Nasr, The Garden of Truth, p. 217

تعتبر النقشبندية إحدى الطرق الصوفية التي أعلنت دعمها لتعاليم مدرسة ابن عربي والقونوي الصوفية لذلك ألّف أعلامها مصنّفات تشرح كتب ابن عربي أو كتب تلاميذه من ذلك شرح "فصوص الحكم" لابن عربي بالفارسية للنقشبندي خواجة بارسا (ت 822هـ). كما ألّفوا كتبا في إيضاح بعض المبادئ الأساسيّة التي تقوم عليها مدرسة التصوّف الفلسفي بقيادة ابن عربي وصدر الدين القونوي وخاصّة مبدأ وحدة الوجود[48].

ويعدّ عبد الرحمان الجامي من أشهر شيوخ الطريقة النقشبندية الذين اخترقهم تأثير تعاليم صدر الدين. وقد سلك الجامي هذه الطريقة على الشيخ الكاشغري. ولمّا توفي شيخه تولّى الجامي رئاسة الطريقة[49]. و أتمّ كتابه "نقد النصوص في شرح نقش الفصوص" سنة 863 هـ. وهو تقريبا الزمن الذي كان واقعا فيه تحت تأثير الشيخ عبيد الله السمرقندي النقشبندي الملقّب بالأحرار (ت 895هـ) وهو تلميذ أحد أصحاب شاه نقشبند.

ويستند شرح الجامي لفصوص الحكم بصفة أساسية إلى القونوي والشرّاح الآخرين للفصوص من تلامذة ابن عربي والقونوي كالجندي والقيصري.

ويصف الجامي في شرحه القونوي بالشيخ الكبير والشيخ الكامل أمّا ابن عربي فيصفه بالشيخ الأكمل[50]. ويحيل على عدد من مصنّفاته مثل "الفكوك" و"تفسير الفاتحة" وبعض رسائله. ويستعيد بعض أطروحاته الأساسيّة المتعلّقة بوحدة الوجود والإنسان الكامل والحضرات الخمس.

وتواصل تأثّر أعلام النقشبندية بالقونوي في العصور اللاحقة فقد وقفنا مثلا على شرح لكتاب "الفكوك" للقونوي للسيد أسعد البلخي النقشبندي (ت 1046هـ) وصفه المحبي في كتابه "خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر" بأنّه شرح يدلّ على علوّ كعبه في علم التصوّف[51].

وفي القرن الثاني عشر للهجرة كان عبد الغني النابلسي (ت 1144هـ) من أشهر شيوخ النقشبندية المدافعين عن تعاليم مدرسة ابن عربي والقونوي. وقد تجلّى ذلك من خلال كتابه "جواهر النصوص في حلّ كلمات الفصوص لابن عربي" وقد طبع هذا الكتاب بالقاهرة وعلى هامشه شرح آخر لأحد أعلام النقشبندية الذين تأثّروا بالقونوي بشكل كبير وجلي هو شرح الجامي. وكان النابلسي من أشدّ المدافعين عن مبدإ وحدة الوجود. وقد ألّف فيه كتابين هما "الظلّ الممدود في معنى وحدة الوجود" و"إيضاح المقصود من معنى وحدة الوجود".

وفي القرن 13 هـ ذكر أحمد النقشبندي الخالدي(ت1250هـ) كتاب "مفتاح الغيب للقونوي" باعتباره من أهم كتب المتصوفة وبين أن من كبار الأولياء بعد القرون الثلاثة الأولى للهجرة صدر الدين القونوي[52] .وبرز نقشبندي آخرفي هذا القرن متأثر بابن عربي وتلاميذه هو الشيخ سليمان بن خوجة إبراهيم قبلان الحسيني المشتهر ببابا خواجة بن إبراهيم بن محمد القندوزي البلخي (ت1294هـ)، وقد أقام هذا الفقيه الحنفي المنتسب إلى الطريقة النقشبندية بمدينة قونية ثلاث سنين وستة أشهر نسخ فيها بنفسه كتابي "الفتوحات المكية" و"الفصوص" من النسخ التي كانت بخطّ مؤلّفها محيي الدين بن عربي. وهي كتب كانت محفوظة بالمكتبة الكائنة في مقبرة الشيخ صدر الدين القونوي. وقد وصلنا من هذا المتصوّف كتاب واحد موسوم بـ"ينابيع المودة لذوي القربى"[53].

وقد اخترق تأثير صدر الدين القونوي طرقا صوفيّة أخرى من قبيل الطريقة الخلوتية[54]. ويظهر ذلك من خلال قيام أحد شيوخ هذه الطريقة هو عثمان بن السيد فتح الله الشمني الرومي الشهير بآت بازادي (ت 1102هـ) بكتابة حاشية على تفسير الفاتحة وسمها بـ"مرآة أسرار العرفان على إعجاز البيان"، وله فضلا عن ذلك "مصباح الغيب في شرح مفتاح الغيب" للقونوي. ويعدّ هذا المتصوّف من المقتدين بتعاليم مدرسة ابن عربي وتلاميذه. وسار على نفس المسلك إسماعيل حقي البرسوي الخلوتي فقد أحال في تفسيره "روح البيان" على الشيخ القونوي، وكتب رسالة "الحضرات الخمس الإلهيّة" بدا من خلالها متأثّرا بأعلام مدرسة ابن عربي عامّة وبالقونوي وكتابه "إعجاز البيان" بصفة خاصّة.

---

[48]- انظر مثلا غلام نقشبند بن عطاء الله اللكهنوي الهندي الحنفي (ت 1126هـ) فقد ألّف كتابا بعنوان "اللامعة العرشية في مسألة وحدة الوجود"، البغدادي، هدية العارفين 813/1.

[49]- محمد أحمد درنيقة، الطريقة النقشبندية وأعلامها، ط1،بيروت ،المؤسسة الحديثة للكتاب،2009، ص 92.

[50]- انظر شرح الجامي على الفصوص على هامش شرح عبد الغني النابلسي "شرح جواهر النصوص في حلّ كلمات الفصوص"، مصر، المطبعة العامرة الشرقية، 1323هـ، 71/1.

[51]- المحبي، خلاصة الأثر،1/.403.

[52]- أحمد النقشبندي الخالدي ، جامع الأصول الأولياء وأوصافهم،تحقيق أديب نصر الدين ،بيروت،مؤسسة الانتشار العربي،1997،ص29،18،17.

[53]- انظر نسخة الكترونية منه على الموقع http://shiaonlinelibrary.co
وقد طبع هذا الكتاب باسطنبول سنة 1302 هـ وتوجد نسخة حجرية مطبوعة في مدينة مشهد سنة 1308هـ.

[54]- تنسب هذه الطريقة الصوفية إلى محمد بن أحمد الخلوتي. وهو من أئمّة الصوفية في خراسان. وقد ادّعى أنّه أخذ طريقته من النبي (ص) مباشرة في اليقظة لا في المنام. والخلوتي نسبة إلى الخلوة الصوفية. وكان من أتباع الطريقة السهروردية. وأخذ التصوّف عن إبراهيم الزاهد ثم استقلّ بطريقته. وقد توفّي في مصر سنة 986هـ.

وقد امتدّ تأثير القونوي في العصر الحديث إلى عدة طرق صوفية منها التيجانيّة، فقد وجدنا أحد أعلامها وهو عمر بن سعيد الفوتي (ت 1280هـ) يحيل على كتاب "إعجاز البيان" للقونوي في مصنَّفه "رماح حزب الرحيم على نحور حزب الرجيم" ويعتبر صاحب هذا الكتب من أبرز علماء غرب إفريقيا ومجاهديه. فقد قام بحركة إصلاحيّة كبيرة هدفت إلى نشر الإسلام وإحياء روح الجهاد في مناطق واسعة من حوضي نهر السنيغال والنيجر[55].

وعلاوة على ذلك أحال محمد الكسنزان الحسيني (ت 1978م) شيخ الطريقة القادرية الكسنزانية في العراق على "إعجاز البيان" للقونوي في بعض كتاباته.

الخاتمة

قد يكتفي الباحث المستعجل والمتسرع بترديد ما ذكرته دراسات كثيرة اعتبرت صدر الدين القونوي بمثابة الناقل والوريث لتعاليم شيخه محيي الدين بن عربي ، وهو إذن مجرّد جسر مرّت عليه كتب الشيخ الأكبر، ولم ينتج عن وظيفة الوساطة هذه سوى شروح تعيد إنتاج أفكار الشيخ ومبادئه ومواقفه .إلاّ أنّ الباحث المتأني لا يكتفي بهذه الأحكام لأنه عندما يتعمق في دراسة آثار الشيخ صدر الدين والحلقة التي أحاطت به من تلاميذه وأصحابه ومعاصريه يدرك حتما أن القونوي تجاوز وظيفتي الناقل والمقلّد وأنّه قدّم إضافات جليلة للمعرفة الصوفية والفلسفية هي أهل لأن تدرس، وأنّه كان حريصا على إبراز استقلاله عن شيخه في عدّة مواضع من كتبه من ذلك مثلا ما يقوله في كتابه الخاص بتأويل سورة الفاتحة:" و قد حصل- بحمد الله بهذا القدر تنبيه لكل نبيه، و موافقة لشيخنا الإمام الأكمل رضي الله عنه، حيث قرن الكلام على سرّ البداية بالكلام على سرّ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ و استفتحه بهذا اللسان، ثم بيّن بعد ذلك ما قدّر الله له بيانه.و لعمر الله لم أقصد ذلك، بل وقع هذا الكلام و الموافقة و الترتيب دون تعمّل، و إنّما تنبّهت له فيما بعد، فشكرت الله سبحانه على ذلك.

و سببه أنّي ما تصدّيت لنقل كلام أحد في هذا الكتاب، لا الشيخ رضي الله عنه و لا غيره إلّا كلمات يسيرة أخطرها الحق بالبال دون قصد وتعمّل في جملة ما ورد من نفحات وجوده" [56] وبرزت هذه النزعة الاستقلالية كذلك من خلال كتاب "الفكوك". حيث يقول في مقدّمته:" لم أستشرح من هذا الكتاب على منشئه رضي الله عنه سوى الخطبة لا غير لكن منّ الله عليّ ببركته أن رزقني مشاركته في الاطلاع على ما اطلع عليه والاستشراف على ما أوضح لديه والأخذ عن الله دون واسطة سببية بل بمحض عناية إلهية ورابطة ذاتية يعصمني فيما أورده "[57]. وهكذا فإنّ الشيخ صدر الدين يقرّ أنّ علاقة التبعية للشيخ توقفت عند شرحه لخطبة كتاب " الفصوص" وأمّا ما سوى ذلك فإنّ صلته بشيخه ارتقت إلى درجة المشاركة في المعرفة وفي الاستنتاج. وهكذا كان القونوي موضّحا لأسرار بعض الأفكار ومتمّما لبعض المعاني والآراء ومستكشفا لخبايا النص وأعماق صاحبه الذي خبره القونوي طويلا.

وقد تجلّت استقلالية القونوي عن شيخه من خلال كثير من المسائل منها أنّه وتلاميذه أكثر اتصالا وتعلقا بالفلسفة من ابن عربي، فلئن كان ابن عربي لا يظهر تأثرا واضحا بفلسفة ابن سينا فإنّ هذا الأثر سيتأكّد بعد موت ابن عربي بفضل جهود صدر الدين فقد كشف من خلال مراسلاته مع نصير الدين الطوسي عن معرفة مفصلة بكتاب ابن سينا "الإشارات والتنبيهات" وكذلك بشرح للطوسي عليه. وتمثّل هذه المراسلات مع أحد كبار ممثلي فلسفة ابن سينا لبنة إضافية منحها الشيخ صدر الدين لتعاليم مدرسة ابن عربي فقد سعى من خلالها إلى المزج بين الطريقة العقلية للفلاسفة وطريقة الكشف الصوفية. وهكذا ساهم القونوي في تأسيس مدرسة أكثر تشبعا بالفلسفة استمرّت تعاليمها من خلال كتبه وتلاميذه ونافست عن طريقهم تأثيرات مدارس صوفية وفلسفية عريقة مثل مدرسة الإشراق للسهروري. ولعلّ الخصوصية التي اتسمت بها مؤلفات صدر الدين القونوي هي التي أهلتها لتكون ذات فعل وتأثير قويين فدفعت كثيرا من العلماء إلى شرحها والتعليق عليها وسجلت حضورها في المدارس الفارسية والتركية بشكل خاص كما كان لها أثرها الجلي في كتب المتصوفة وفي كثير من الطرق الصوفيّة مثلما بيّنا. وهذا ما يؤدي بنا إلى القول إن كتبه قنّنت وضبطت وسيّجت قراءات أجيال من العلماء لكتب ابن عربي.

وما كان هذا ليتحقّق لو لا جملة من العوامل المتضافرة منها دور تلاميذ القونوي الذين تأثّروا بدروسه وبكتبه وردّدوا مصطلحاته ومفاهيمه وتعاليمه وساهموا في نشرها وإيصالها إلى أماكن قصية وعبر العصور المتعاقبة.

وقد كان لتنوّع تلاميذه وانتمائهم إلى ثقافات وأعراق مختلفة دور في هذا فضلا عن ازدواجية اللّغات التي يكتبون بها آثارهم وهي العربيّة والفارسية.

---

[55]- انظر الحاج عمر الفوتي وحركته الإصلاحية على العنوان التالي :www.mahah.info/browse.php

[56]- القونوي، إعجاز البيان بتأويل أم القرآن ، ص 147.

[57]- القونوي ، الفكوك ، ص 4.

ومن هذه العوامل أيضا قيام القونوي بتطوير كثير من آراء مدرسة ابن عربي وتوضيحها على غرار وحدة الوجود بل إن بعض هذه الآراء يعود الفضل إلى صدر الدين في إدخالها، فحسب الباحث شتيك (Chittick) إن ابن عربي كثيرا ما يوصف في المصادر الإسلامية بأنّه منشئ مبدإ وحدة الوجود مع أن هذه العبارة غير مذكورة في كتبه. وأوّل من أدخل هذه العبارة في نظره هو صدر الدين القونوي ثم تواتر ذكرها لدى عفيف الدين التلمساني تلميذ القونوي [58]. والظاهر أنّ من أهمّ تجليات طرافة القونوي وإضافاته تعامله مع كثير من المصطلحات. فمصطلح التعين على سبيل المثال استخدمه ابن عربي أحيانا لكنّه أضحى مصطلحا مهمّا من خلال كتابات القونوي وتلاميذه. أمّا مصطلح الجلاء والاستجلاء فيبدو أنّ القونوي جعل استخدامهما متواترا. أمّا مصطلح الواحدية فقد بدأ يوضع في تقابل مع مصطلح الأحدية من خلال كتابات القونوي والفرغاني [59]. وفي كتاب "النصوص" مثلا نجد ذخيرة من المصطلحات التي تكشف حسب محقق هذا الكتاب عن اتجاه جديد في فكر هذا الصوفي المتفلسف حيث ينحو اتجاه التوحيد المطلق أو فكرة إطلاق الذات الإلهية دون ميل إلى تشبيه أو تجسيم أو حلول أو اتحاد.

وما نستخلصه في الختام أن القونوي ساهم مع شيخه وتلاميذه في جعل التصوف عامّة وتصوّف ابن عربي خاصّة ضمن العلوم الرسمية التي كانت مقوّما من مقوّمات التعليم الديني في بلاد فارس وتركيا . كما ساهم في الارتقاء بالتصوف من مجرّد معارف يطغى عليها البعد الأخلاقي إلى معرفة نظرية ممتزجة بالفلسفة وأسهم أيضا من خلال المكانة التي كان يتمتّع بها لدى الحكام في منح شيوخ التصوف مكانة رسمية في الدولة على خلاف ما عرفته الحركة الصوفية في الغرب الإسلامي [60].

والظاهر أنّ التسرع في الحكم على القونوي مثلما فعل ابن تيمية ليس سوى علامة على سوء الفهم له. والأمر في الحكم عليه كما قال النابلسي في شيخه فإنّ بعض مصنّفاته مفهوم النص والمعنى وموافق للأمر الإلهي والشرع النبوي وبعضها خفي عن إدراك أهل الظاهر دون أهل الكشف والباطن ومن لم يطّلع على المعنى المرام يجب عليه السكوت في هذا المقام.

---

[58] W. Chittick, Imaginal worlds, 1994.

[59] ـ انظر : Sachiko Murata, W. Chittick, chinese gleams of sufi light ,p229.

[60] - قاسم غني، تاريخ التصوف في الإسلام ،ترجمة صادق نشأت ،القاهرة ،مكتبة النهضة المصرية،1970، ص 699.